الحجُّ ومكَّة المُكرَّمة في كتابات المكِّيِّين

أبو بكر أحمد باقادر * وحسين محمَّد بافقيه **

لكـــلّ مدينة مفتاح، ومفتاح مكة المكرَّمة الحجّ، الذي ربط بين المكان "مكة" والـــزمان "الحجّ"، حيث يتمّ قصدها استجابة لنداء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْـــكَنْتُ مِـــنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَـــلْ أَفْـــئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ {إبـــراهيم: ٣}، فـــالحجّ هو الشعيرة التي ارتبطت برحلة إبراهيم الخليل إلى مكة المكرَّمة، فلا يكاد يكون هناك مشعرٌ دينيّ إلا وله ارتباط بتلك الرحلة، التي جعلت مكّـــة المكرّمة، منذ وجدت، الحاضنة لبنيها، وللآخرين، فهي "أمّ القرى"، وأهلها جيرة بيته الكريم، وهم "أهل الله".

وكمـــا كـــان "الحـــجّ" مفتاح شخصيَّة المدينة، فهو، كذلك، مفتاح شخصيَّة المكـــيِّين، على مرّ الأزمان، بدءًا من نداء إبراهيم عليه السلام، واستضافة السيِّدة هاجـــر وابـــنها إسماعيل – عليهما السلام – قبيلة جرهم، لتبدأ مسيرة هذه المدينة المقدّســـة في قـــبول الآخر والانفتاح عليه، بل الدعوة إلى لقائه وحواره، وبدرجة

---

* أستاذ جامعيّ وعالم اجتماع.

** ناقد أدبي وباحث في التاريخ الثقافيّ للحجاز.

رفيعة من التسامح والتعدديَّة، التي تسمح لجميع الحجاج أن يجدوا فيها ما تعوَّدوه في بلدانهم من أساليب حياتهم الخاصَّة، في المأكل والملبس، بل وأن يعيشوا في كنف من يعرف لغاتهم وطبائعهم وتصوراتهم، فكانت مكَّة المكرمة خلاصة العالم الإسلاميّ، ومظهر عبقريّته الاجتماعيَّة والثقافيَّة.

واستطاعت مكة المكرَّمة - على الرغم من تمكينها كلّ عرق وثقافة من الاستمرار - الاحتفاظ بشخصيتها التي هي كلّ تلك الأنوال التي تكوَّنت منها، وبخلطة تُشعر الجميع بالمشاركة الفاعلة فيما يمكن عدّه "الثقافة المكيَّة"، المنطلقة في أساسها من "شخصيَّة المكان"، تلك الشخصيَّة التي وُجدت معها، منذ أنْ بدأ تاريخها، الذي كفل لأهلها تجاوز قسوة الجغرافيا، وصناعة الشخصيَّة المكيَّة التي ربطت الزمنيّ بالدينيّ، وهيَّأ لها أن تكون "لقاحاً"، حتى لو كان شرط بقائها التاريخيّ، هو انفتاحها على الآخر، وتحولها إلى "رحم رمزيّ" لكلّ اللغات واللهجات والنظم الرمزيَّة التي تنتمي إلى "المكان" وتستمدّ شخصيتها منه. فلا غرابة أن يفد الوافدون على مكَّة من كلّ حدب وصوب؛ فهم مقبولون، سلفاً، فمكَّة المكرَّمة من أكثر المدن قبولاً لكلّ ألوان الطيف البشريّ والثقافيّ والاجتماعيّ.

في قصة قصيرة بالغة الرمزيَّة، يصوِّر الأديب والمؤرِّخ والمطوِّف المكّيّ أحمد سباعي[1]، قصة فتاة مكيَّة جاء لخطبتها أحد الحجاج من جنوب شرق آسيا، وهذه الفتاة، التي لا نعرف عن شخصيتها شيئاً سوى أنَّ اسمها "كدرجان"، فاتها قطار الزواج، فكانت تتطلَّع إلى زوج، يجمع إلى التديُّن الجاه والمال والمكانة الاجتماعيَّة، حتى وإن كان من مجتمع ناءٍ في أقصى الدنيا!

"ومضت الأيام قبل أن تستيقظ ذات صباح على من يطرق الباب. كانوا ضيوفاً من إندونيسيا قدموا إلى الحجّ من عامهم ذلك. رجلاً وامرأتين يحملون إليها رسالة من بعض أقرباء أبيها. فاستقبلتهم... وبعد أن تناولوا تحيتهم قهوة وشايًا شعرت أنَّ عين الشابّ تسارقها النظر في لهفة، فلم تعلّق كثيراً على هذا على الرغم من أنها أنست ارتياحاً واستطاعت أن تغافله لتنام عدَّة ثوانٍ بين أهدابه.

---

[1] سباعي، أحمد، **خالتي كدرجان** (جدة: تهامة، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م) ص ١١-١٩٠.

ولم تمـــض إلا ساعات بعد وداع الضيوف حتى طرق الباب لتستقبل في هذه المرَّة شـــيخة الحجاج جاءت تنقل إليها رغبة ضيوفها في طلب يدها لابنهم الشابّ الذي كان يصحبهم في زيارتها قبل ساعات.

ولكـــن الشيخة كانت شيخة في صرامتها فقد أهابت بها وهي تودعها: "شوفي يا بـــنتي الولد بعد الحجّ يسافر بلده مع أمه وأخته اللي شفتيهم يأخذ رضا أبوه ويأخذ اللي فيه النصيب علشان المهر واللي منه، ويجيكي راجع. أبوه يبغاه يدرس هنا ويبغاه يكمل دينه ويربط رجله...".

وتمضي القصة لتوضح أنّ الفتاة المكيَّة باتت تنتظر عودة خطيبها القادم من أقصى الدنيا، وظلَّت تعدّ أشهر السنة؛ شهرًا شهرًا، ويأتي الموسم تلو الموسم، "وفتاتنا تنتظر دون أن تفقد الأمل"!

أليست هذه هي قصة مكة المكرَّمة وعلاقتها مع حجاجها؟

الانـــتظار والترقُّب؟ والخوف والرجاء من المستقبل؟ إلى أن يحين "الموسم" الجديد؟ ومَن يمكن أن تكون "كدرجان" سوى مكة معشوقة المسلمين، الذين يتوجهون إليها في الـــيوم خمس مرَّات، ويمنّون أنفسهم بزيارتها، ولو مرَّة في العمر! ويبذلون في سبيل الوصول إلى جوارها أعزّ ما يملكون، ويقاسون في سبيل النَّظر إلى وجهها الجميل كلّ المشـــاقّ والصعاب، بل ويحلمون أنْ تختلط أجسادهم بصرَّة طينتها المباركة، حتى لو غادروا الوطن، وتركوا وراءهم الأهل والولد!

إنَّ الرمـــزيَّة التي يشير إليها سباعي تصوِّر ، بحقّ، كيف أنَّ رحلة الحجّ هي رحلة عشـــق، كما يؤكِّد ذلك عددٌ من الرحالة الفرس، فيما كتبوه عن رحلة العمر، وهي رحلة فرديَّة خاصَّة، حتى وإن كانت رمزًا لتجمُّع إسلاميّ عالميّ؛ فلكلّ حاج ذكرياته الفريدة، ومكة المكرَّمة قادرة على أن تكون الحضن الذي يتَّسع لجميع المحبين، والبيت الذي لا يقفل بابه في وجه قاصد يه، وتظلّ، أَبد الدهر، منتظرةً حجاجها وعُمَّارها، في ثنائيَّة فريدة تحددها علاقة حاجّ بمدينة.

وقدر هذه المدينة المعشوقة أن تنتظر خطَّابها، موسمًا بعد موسم، وأن لا تشيب، ولا تشعر بامتداد العمر، لأنَّها تجدِّد سحرها وجمالها كلّ موسم، في كامل زينتها وعنفوانها وطهارتها، وقدر قاصديها أن تلهج قلوبهم بمآثرها، والشوق إليها، وكأنَّ لسان حالهم ما سطَّره ابن بطوطة في عشق هذه البلدة المقدَّسة:

"ومـــن عجائب صنع الله تعالى أنَّه طبع القلوب على النُّزوع إلى هذه المشاهد المنـــيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبَّها متمكناً في القلوب فلا يحلُّهـــا أحـــدٌ إلا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها، متولّهاً لبعاده عـــنها، شـــديد الحنين إليها، ناويًا لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعـــين، ومحبّتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة، وتصديقًا لدعوة خليله عليه السلام، والشوق يُحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، وهون على قاصدها ما يلقـــاه مـــن المشاقّ ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى الموت عيانًا دونها، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقّاها مسروراً مستبشراً كأنَّه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصباً..".[٢]

أدَّى قصـــد النَّاس مكة المكرَّمة، لغرض الحجّ، أنْ غدا الحجّ قوام حياة المكيّين والعمود الفقريّ لمعيشتهم، وكان ارتباط الحجّ، دينيّاً، بالعديد من المنافع، انطلاقاً مـــن قـــوله تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ {الحج: ٢٨}، سببًا في رواج التجارة وحـــركة البـــيع والشراء في هذه المدينة المقدَّسة، معظم السنة، خاصة أنَّ حركة المواصـــلات، قديماً، جعلت عدداً كبيرًا من الحجاج، يقصدونها في وقت مبكر عن موســـم الحجّ، ويمكثون فيها لمدة تزيد عن سبعة أشهر، وهو ما يسمح بجعل مكة المكـــرَّمة، خلاصـــة للعـــالم الإســـلاميّ، وبيئة خصبة لحركة التثاقف الاجتماعيّ والفكـــريّ، ومـــيداناً لحركة البيع والشراء، وتبادل السلع والمنتجات بين مختلف أرجـــاء العـــالم الإسلاميّ، "ففي موسم الحجّ يتوفَّر بمكة من أنواع السلع والأمتعة والمصـــنوعات والمأكولات والمشروبات ما لا يتوفَّر مثله في كثير من حواضر العالم ومدنه، من المصوغات والحليّ إلى لعب الأطفال".[٣]

وهـــيَّأ انفـــتاح المجتمع المكيّ على الآخر، طوال تلك القرون الماضية، تحوُّل مكة المكرَّمة إلى سوق كبرى للمنتجات الاستهلاكيَّة، في صورة قلَّما تتكرَّر في العـــالَم القديم، وذلك بسبب فريضة "الحج" التي جاءت استجابةً لدعوة إبراهيم

---

٢ ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي (الرباط: مطبوعات أكاديميَّة المملكة المغربيَّة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ١/ ٣٠٧-٣٠٨.

٣ رفيع، محمد عمر، **مكة في القرن الرابع عشر الهجريّ** (مكة: نادي مكة الثقافيّ، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ١٨١.

- عليه السلام - فغدا هذا الوادي غير ذي الزرع مرايا للأطعمة والمشروبات والتُحف والرياش! على ذلك النَّحو الذي جعل ابن بطوطة - رحمه الله - يسوق هذه المقولة المدهشة:

"ومكة ، شرَّفها الله، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيًا عن نبيِّه الخليل، بوادٍ غير ذي زرع، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكلّ طُرفة تُجلَب إليها، وثمراتُ كلّ شيء تُجبَى لها. ولقد أكلتُ بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرُّطب ما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطّيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة. واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم، وكلّ ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه.."![4]

وكانت الاستجابة لنداء إبراهيم - عليه السلام - ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ {إبراهيم: ٣} بداية التدافع البشريّ نحو مكة المكرَّمة، بقصد الحجّ وحدَه، وبقصد الحصول على منافع اقتصاديَّة وثقافيَّة واجتماعيَّة، وهو ما لا يتعارض مع المفهوم العميق للحجّ، المتحدِّد في قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ {الحج: ٢٧-٢٨}.

فأدَّى هذا إلى أن يضايق هؤلاء القادمون إلى الأماكن المقدَّسة أهلَ مكة في رزقهم ومعيشتهم، ببقائهم بعد الحجّ، بهدف الانتفاع من حركة البيع والشراء في مكة المكرَّمة، فاضطرّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يقف، بعد انتهاء الموسم، منادياً "يا أهل الشام شامكم، ويا أهل اليمن يمنكم"، "وذلك لئلا يكثر المجاورون فيستأثروا بما لهم من الثروة بأرزاق أهل مكة فيضيقوا..".[5]

---

[4] نفسه، ١/٣٧٠.

[5] العامودي، محمد سعيد، **من تاريخنا** (جدَّة: الدار السعوديَّة، د. ط، ت) ص ١٧٩. الردادي. عائض، **الشعر الحجازيّ في القرن الحادي عشر الهجريّ** (جدة: مكتبة المدنيّ، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ٨٦.

غير أنّ هذا الإجراء الذي استنّه الخليفة الثاني - رضي الله عنه - لم يكتب له الاستمرار في التاريخ، لأسباب؛ منها ما جاء في الأثر من فضل المجاورة في مكة المكرَّمة؛ واشتداد الأزمات التي حاقت بالعالم الإسلاميّ، بسبب الحروب والفتن، فكان الحرمان الشريفان - وبخاصة مكة المكرَّمة - ملاذًا للناجين بأنفسهم من الهلاك، وطلبًا للأمن واللياذ به، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ وبناء عدد من السلاطين والولاة والأثرياء أربطة ومدارس خاصة بأبناء جلدتهم من فقراء الحجّاج، الذين يجدون أنفسهم، بعد حين من الدهر، قد استوطنوا الديار المقدَّسة؛ فضلاً عن شرف مجاورة البيت الحرام، الذي كان مطمح جيل من العلماء والأدباء الذين لم يكن لهم من مطمع ومطمح سوى أن ينادوا بـ"جار الله"!

وأدَّى هذا التدافع البشريّ المستمرّ على مكة المكرَّمة، أنْ غدت مدينة بامتياز، وذلك لعدّ المدينة - أي مدينة في العالم - مجتمعاً من الغرباء، يحافظ على وجوده، في الوقت الذي يحفظ فيه استقلال الآخرين، ما يؤدّي، في النهاية، إلى أنْ تغدو تلك المدن، نموذجاً للتعايش السكانيّ، والتثاقف المستمرّ. فمكة المكرَّمة - كما رآها محمد لبيب البتنوني - "يجدر بها أنْ تسمَّى بالمعرض الإسلاميّ"[٦]، لكثرة الأزياء، وتعدُّد الأجناس فيها في أثناء موسم الحجّ، ومن ذلك الانصهار العرقيّ، والامتزاج السكّاني، غدا أهل مكة المكرَّمة - كما يرصد البتنوني - "خليطاً في خَلقهم، خليطاً في خُلقهم: فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحدّة المغربي، وبساطة الهندي، ومكر اليمني، وحركة السوري، وكسل الزنجي، ولون الحبشي*. بل تراهم جمعوا بين رفعة الحضارة وقشف البداوة: فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك، وضعته بين يديك، إذ هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه، حتى كأن طبيعة البداوة تغلّبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلّفه في حضرتك".[٧]

---

[٦] البتوني، **الرحلة الحجازيّة، الطائف** (القاهرة: مكتبة المعارف، ط٣، د.ت) ص ٤٠.

* هذه الصور النمطية تكمن أهميتها في الانطباع العام الذي استقر عند المكيين عن الآخرين الوافدين، ولكنها لا تغيّر بالضرورة عن حقيقة شخصياتهم الأساسية.

[٧] **الرحلة الحجازيّة، الطائف**، ص ٤٢.

والذي يسترعي الانتباه في هذا التدافع البشريّ في مكة المكرَّمة، موقف المكيّين من الآخـــر، القـــادم إلى ديارهم، بقصد الحجّ والعمرة، أو بقصد المجاورة، فمكة المكرَّمة تـــتكوَّن مـــن نســـيج فسيفسائيّ بشريّ، تشكَّل عبر العصور في هذه الملامح المكيَّة المؤتلفة، على الرغم من انبنائها من عناصر مختلفة، ولكنَّها، تصبّ، في نهاية الأمر، في شخصيَّة مكة المكرَّمة وعبقريّة المكان فيها.

فعامَّـــة أهـــل مكّة المكرَّمة، في نظر عددٍ من الرحالة، وبخاصة البتنوني ورفعت باشـــا، مجموعة من الأغراب[٨]، ولذا فإنَّهم ينظرون إلى أهل مكة المكرَّمة، بحسب أصـــولهم، دون أن يتنـــبَّهوا إلى الطبيعة الفسيفسائيَّة التي جعلت المكيّين أنفسهم يـــتجاوزونها؛ فمكة المكرَّمة - يقول محمد عمر رفيع - "أشبه بباقة من الزهر، فيها مـــن كـــلّ نوع ولون وردة، ويتفاضلون ويتمايزون فيما بينهم بالعراقة في الهجرة وإيغالهـــا في القدم. فمن كانوا أعرق إقامة، عدوا أنفسهم هم أهل مكة، ونبذوا حديث الهجرة، ووصفوه بأنه آفاقي..".[٩]

ومـــع سرعة خلع صفة المكّيّة على من حلّ بمكة واستوطن بها أو جاورها؛ فإنَّ مقـــولة "يـــا غـــريب بلادك"! ظلَّت ملازمة لأهل مكة المكرَّمة، ومنطقة الحرمين الشـــريفين، بصورة عامّةً. ومن ذلك تذمُّر محمد كبريت المدني - في القرن الحادي عشـــر الهجـــريّ - مـــن كثرة الوافدين على المدينة المنوَّرة، وإيثارها إياهم على أهلها[١٠]، لتصبح هذه المقولة عالقة في ذهن أهل مكة، وبخاصة حينما تشتدّ السنة، بســـبب الجفـــاف وشـــحّ إقبال الحجيج، فلا تكفي الجراية التي يفرضها السلطان العـــثمانيّ لأهل مكة، لأنّ المجاورين والآفاقيين يزاحمون المكيّين، حتى في الصدقات الـــتي ترد إليهم. فلا غرو أن يلهج المكيّون بتلك المقولة، وبرصيفتها "شور الأمانة

---

٨ **الرحلة الحجازيَّة**، ص ٤٠-٤١. رفعت، إبراهيم، **مرآة الحرمين** (د.ن، د.م، د.ت) ١/٢٠٠.

٩ نفسه، ص ١٨-١٩.

١٠ **الشعر الحجازيّ في القرن الحادي عشر الهجريّ**، ١/٨٧.

لا تـبات اللـيلة"[١١]، وكـأنّ القانون، غير المدوّن، لدى المكيّين، هو أننا نحبّ الأغراب، ولكن شريطة أنْ لا يستقرّوا في ديارنا!

وتـتأكّد علاقة المواطَنة والانتساب إلى مكة المكرَّمة، فضلاً عن تقديم خدمات الحجّ لحجّاج بيت الله الحرام، في حساسيَّة المكيِّين في أنْ يُطلَق على أحد منهم لقب "حاجّ"! إذا قام بأداء هذه الفريضة، هذا اللقب الذي يحرص على التحلّي به كثيرٌ ممـن حجّ البيت الحرام[١٢]؛ وذلك لكون هذا اللقب يحمل بعض دلالات الغريب، والطـارئ علـى البلاد، فضلاً عمَّا يحمله هذا اللقب، في سياقه التداوليّ الشعبيّ، ولذا فإنّ المكيّ حينما يفاصل صاحب المتجر، يؤكّد عدم سذاجته وغفلته وإمكان خداعه، بقوله: "أتظنّني حاجًّا"!

وهـذا مغاير للدلالات التكريميَّة التي تدور في حقل مفردة "حاج" في عدد من الدول الإسلاميَّة، والتي تعدّ مطمحاً لحجّاج تلك الديار! "لذا كان ولا يزال لقب الحـاجّ عـند سـواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلّى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى، وهو يدلّ على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبّان، فإذا قـيل لـواحد مـنهم يا حاجّ فلان يعني يا أيُّها الشهم الشجاع، أمَّا إذا لقبت به الشـيوخ والكهـول فإنَّما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذي تحمَّلوا في طريقه الأهوال التي تشيب منها الأطفال"[١٣]. بل كان المستعمر الهولنديّ في إندونسيا يَفْرَق من لقب "حاج" الذي يفاخر به الحجاج الجاوا - آنذاك - ويساوي بين هذا اللقب وكلمة "عالم" في المخيال الرمزيّ الإسلاميّ، حتى لو كان ذلك الحاجّ لايفقه كثيراً من أمور الدين![١٤]

---

١١ الكردي، محمد طاهر، **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم** (مكة المكرَّمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م) ١٩٩/٥. نقلاً عن مخطوطة إفادة الأنام لعبد الله الغازي المكيّ.

١٢ هرخرونيه، سنوك، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ** (مكة المكرَّمة: نادي مكة الثقافيّ الأدبيّ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص ٤٠٨. **الرحلة الحجازية**، ص ٣١٠-٣١١.

١٣ **الرحلة الحجازية**، ص ٣١٠، ٣١١.

١٤ **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ**، ص ٤٠٨.

هيّأ الحجّ بوصفه جماع الحياة في مكة المكرَّمة كونها "ملتقى الغرباء"، وأثَّر هذا الملتقى في التثاقف الاجتماعيّ والفكريّ، والتبادل الاقتصاديّ والتجاريّ، والأهمّ جعْل مكّة المكرَّمة مصدر اليقظات الفكريَّة والسياسيَّة في العالم الإسلاميّ، ومركز التقاء شرق العالم الإسلاميّ بغربه، بدءًا من عدّ هذه المدينة المقدَّسة النادي السنويّ لالتقاء علماء الأمَّة الذين قد لا تتاح لهم الفرصة للالتقاء بمكان آخر سوى هذه المدينة، "فكم من عالمٍ تشوَّق لرؤية عالمٍ آخر وحال دون مُنْيَته بعد الشُّقَّة حتى إذا ما قدم الحجاز تحقَّق له أمله!، وكم من عالم آخر في الحجاز وَفَّر عليه مقامه فيه مشقَّة الرحيل إلى أحد الأقطار الإسلاميَّة للأخذ عن عالم سرتْ بخبر علمه الرُّكبان!"[١٥]، وقد غدت فضيلة كتابيَّة أنْ يولع الرحالة القادمون إلى الحرمين الشريفين – ومكة المكرَّمة بوجه خاصّ – بذكر العلماء الذين التقوهم، وذكر مناقبهم، والكتب التي درسوها عليهم، كما فعل ذلك ابن بطوطة، وابن رُشيْد، والعبدريّ وآخرون. ولتصبح المجاورة في مكة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة منقبة من مناقب العلماء والأدباء، كما في حالة الإمام البخاريّ الذي رُويَ عنه قوله: "صنَّفتُ كتابي الجامع في المسجد الحرام"، وجار الله الزمخشريّ، الذي تلقب بهذا اللقب لمجاورته بيت الله الحرام، الذي أنجز مؤلَّفه العظيم "الكشَّاف عن حقائق التأويل"، "بين ظهراني الحرم، وبين يديْ البيت الحرام، حتى وقع التأويل حيث وجد التنزيل"[١٦]، إلى أن يصل عدد المجاورين من العلماء والأدباء المئات في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين، كما تنبئ بذلك كتب التراجم، وبخاصة "الضوء اللامع" للسخاوي، و"البدر الطالع" للشوكاني، و"الكواكب السائرة" للغزّي، و"درة الحجال في أسماء الرجال" لابن القاضي، و"ريحانة الألبا" للخفاجي[١٧]، وأن يصبح المجاورون من السمات الثقافيَّة الأصيلة لمكة المكرَّمة، إذ تولَّى عددٌ منهم "إمامة الحرم المكيّ، والأذان، والقضاء، والتدريس، والفتوى"[١٨]، وأسهموا في تأسيس

---

١٥ **الشعر الحجازيّ في القرن الحادي عشر الهجريّ**، ١/١٠٢.

١٦ أبو سليمان، عبد الوهاب، **الحرم الشريف: الجامع والجامعة** (نادي مكة الثقافيّ الأدبيّ، ١٤١٧هـ) ص ٧.

١٧ **الشعر الحجازيّ في القرن الحادي عشر الهجريّ**، ١/١٢١.

١٨ العبيكان، طرفة، **الحياة العلميَّة والاجتماعيَّة في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة** (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنيَّة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ص ١٤٤.

المـــدارس والمكتبات والرباطات، والمشاركة في إنعاش حركة التأليف فيها. ومرورًا بـــرؤية عددٍ من مفكري عصر النهضة إلى مكة المكرَّمة بوصفها الملاذ والمنقذ للعروبة والإســـلام في العصـــر الحديث، كما في كتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبيّ؛ ووصـــولاً إلى دور علماء الحرم المكيّ الشريف والمطوفين في حلّ الكثير من النزاعات السياسيَّة[١٩]، وتدشين النهضة العلميَّة في عددٍ من الدول الإسلاميَّة، وبخاصة إندونيسيا وماليـــزيا، ولعـــلّ من أبرز دلائلها "مدارسٍ نهضة العلماء بإندونيسيا التي يبلغ تعداد مدارســـها مـــا يربو على أربعمئة مدرسة لمختلف المراحل العلميَّة ابتداء من المرحلة الابتدائـــيَّة حتى المرحلة الجامعيَّة العالية، وهي واحدة من مؤسسات علميَّة كثيرة تملأ الـــبلاد الإندونيســـيَّة، يـــرجع الفضل في تأسيسها إلى تشجيع فقهاء الحرم الشريف وتوجيههم لتلاميذهم هناك"[٢٠]، ليصل التأثير العلميّ والثقافيّ لعلماء مكة المكرَّمة إلى سلاطين تلك الدول والولايات وأمرائها ووزرائها وقضاتها الذين تلقوا طرفاً مهمّاً من تعلـــيمهم في مدارس مكة المكرَّمة، وبخاصة "الصولتيَّة"[٢١]. بل إنَّ عددًا من حركات التحـــرُّر الوطنيّ في مناطق مختلفة من العالم الإسلاميّ انطلقت من جوار البيت العتيق، ولعلّ من أهمّها "شركة الإسلام" الإندونيسيَّة، وهي أول حزب إسلاميّ طالب بحقوق المسلمين، استمدَّ روح الجهاد من جوار الحرم الشريف".[٢٢]

وانـــتهجت مكّة المكرَّمة، منذ عصورها الأولى، التي تمتدُّ إلى الجاهليَّة، نظام تقسيم العمـــل، لـــيظلّ هذا النظام معمولاً به، حتى وقت قريب، ممثّلاً ذلك التقسيم صورة المهـــن والـــنقابات والحرف في المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة، لمرحلة ما قبل العصور الحديـــثة؛ وهذا ما كانت عليه الحال في المجتمع المكّيّ الذي تكوَّن، عبر قرون متتالية، من عناصر سكَّانيَّة متباينة، بحكم حركة الحجّ، والمجاورة، ومن ثمّ التوطّن والاستقرار، ليؤدِّي هذا النسيج السكانيّ المتنوِّع إلى توزُّع العمل في مكة المكرَّمة؛ الذي يعود، في غالبه، إلى الدوران حول مركزيَّة الحجّ دينيّاً واقتصاديّاً، ليتأثر أهل مكّة - فيما يذكر

---

١٩ **الحرم الشريف: الجامع والجامعة**، ص ٢٤، ٢٥.

٢٠ نفسه، ص ١٥.

٢١ نفسه، ص ١٦.

٢٢ **مكة في القرن الرابع عشر الهجريّ**، ص ٣١٢. **الحرم الشريف: الجامع والجامعة**، ص ٢٠، ٢١.

هرخرونيه - "تأثُّراً بالغاً بالحرفة الرئيسيَّة في مكة ألا وهي الاستفادة من مواسم الحجّ كلّ عام. وتعتمد حياة أهل مكة اعتمادًا مباشرًا على خدمة ضيوف الرحمن القادمين إلى البلد المقدَّس. "[٢٣]، ليتفرَّع عن الحجّ وخدماته، التقسيم الاقتصاديّ للعمل؛ فالهنود يعملون في التجارة؛ وبخاصة البهارات والأقمشة[٢٤]، والشوام في تجارة الأحاريم والمكسَّرات والفواكه المجفَّفة[٢٥]، والحضارمة في تجارة السكّر والشاي والحبوب[٢٦]، والبخاريَّة في تجارة أدوات الخياطة[٢٧]، في حين يعمل أبناء البادية بتأجير جمالهم بين جدة والطائف والمدينة المنوَّرة.[٢٨]

غير أنَّ لمهنة "الطوافة" المكانة الكبرى في الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة لمكة المكرَّمة؛ وهي مهنة ذات تأثُّلٍ دينيّ عميق، لاتصالها - في أساس نشأتها - بتطويف الحجاج بالبيت العتيق، وكانت بدايتها متصلة بتطويف سراة القوم وكبارهم٢٩، ليصل بها الأمر إلى أن تغدو العمود الفقريّ للأعمال المتعلِّقة بالحجّ، ولتشمل جميع الحجَّاج القادمين إلى البيت الحرام، ويطاولها، كذلك، نظام تقسيم العمل، منذ عام ١٣١٨هـ، ليصبح لكلّ مجموعة من البُلدان مطوفٌ خاصّ بها.

وأثَّر الحجّ والمهن المرتبطة به، وبخاصة الطوافة، في حياة المكيّين، ونظرة حجاج بيت الله الحرام إليهم؛ إذا أكسب اتصال المكيّين بالأجناس واللغات واللهجات المختلفة، معرفة واسعة بأحوال العالم الإسلاميّ، ولغاته، وأطعمته، وعاداته وتقاليده؛ التي وجدت طريقها إلى النسيج الاجتماعيّ والثقافيّ لمكة المكرَّمة، وحواضر الحجاز، بشكل عامّ، خاصَّة أنَّ تنظيمات الحجّ - بسبب حركة النقل والمواصلات - كانت تسمح بأن يقضي طوائف مختلفة من الحجَّاج ما يقرب من سبعة أشهر في رحاب مكة

---

٢٣ **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ**، ص ٦٤.

٢٤ نفسه، ص ٥٥. **مكة في القرن الرابع عشر الهجريّ**، ص ١٦١.

٢٥ **مكة في القرن الرابع عشر الهجريّ** ، ص ١٦١.

٢٦ نفسه، ص ١٦١.

٢٧ نفسه، ص ١٦٣.

٢٨ **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ** ، ص ٥٧.

٢٩ سباعي، أحمد، **تاريخ مكة** (مكة: نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ٣٣٧.

المكـــرَّمة، ملتحمين بالنسيج الاجتماعيّ لأهلها، ومتصلين بالحياة الدينيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة في البلدة المقدَّسة، إذ كان الانضمام إلى الحلقات العلميَّة الكبرى في المسجد الحرام حلم عدد كبير من طلبة العلم من حجاج بيت الله، والذين يجعلون جانباً كبيراً مـــن وقـــتهم وفراغهم الانتماء إلى تلك الدروس العلميَّة التي يقوم عليها أكابر علماء مكـــة المكـــرَّمة، في ذلـــك الوقت. يقول محمد عبد الحميد مرداد: "كان الحجاج الـــوافدون إلى بيت الله الحرام في ذلك الحين يتعلمون قراءة القرآن مع التجويد لأنهم كانوا يصلون من شهر رجب، وخاصة سكان جزر جاوه وبورنيو وسومطره والهنود والبنغالـــيين وسكان الهند الصينيَّة الفرنسيَّة والسياميّين وسكان جنوب إفريقيا وأهل بخـــارى وشـــبه جزيرة القرم والأناضول وغيرهم. وكانوا يدرسون على يد نخبة من علماء مكة وقرائها...

وكـــان المســـجد الحرام صورة حيَّة لجميع أدوار التعليم، إذ يعشق بعض الحجاج الاســـتماع إلى الفقه، ويفضِّل بعضهم الحديث والتفسير، وبعضهم يعشق تعليم اللغة العربيَّة...".[٣٠]

وكفلت الطوافة، بصفتها مهنة عائلات وأسر، اشتغال جميع أفراد أسر المطوفين في أعمـــال الحـــجّ، وهـــي فرصة أتاحت معرفة أكثر بالحجَّاج وأسرهم، طوال الأشهر الطـــويلة الـــتي يقضونها في جوار البيت العتيق، عن طريق الزيارات المتبادلة بين أسر المطـــوفين والحجاج، وتبادل الهدايا، وبخاصة من كتب لهم الحجّ عدة مرات[٣١]، وقيام المطـــوفين بمهـــامّ اجتماعيَّة ذات طبيعة شخصيَّة؛ كعقد زيجات للحجاج بعد قضاء الفريضة، أو الحجّ بدلاً من أقاربهم الموتى أو الأحياء[٣٢]، والإسهام في حلّ مشكلاتهم الأســـريَّة والسياســـيَّة -كـــذلك- وأصبح المطوفون بسبب العوائد الماليّة الطيّبة التي يحصـــلون علـــيها، وبخاصـــة إذا كان عدد الحجاج كبيراً في الموسم، يؤلّفون طبقة اجتماعـــيَّة واقتصـــاديَّة مهمَّة في المجتمع المكّيّ، الذي يتأسَّس عماده الاقتصاديّ على الحـــجّ وموسمه، حتى غدت مهنة "الطوافة" - فيما يشير هرخرونيه في أواخر القرنين

---

٣٠ **رحلة العمر**، ص ٣٨٩.

٣١ مرداد، محمد، مرجع سابق، ص ٤٠٣.

٣٢ **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ**، ص ٩٨.

الثالث عشر الهجريّ والتاسع عشر الميلاديّ - حلم شبّان مكة المكرَّمة وفتيانها، "فمنذ نعومة أظفار الطفل وهو يرى هؤلاء المطوِّفين يتمتعون بمترلة عالية ونفوذ كبير في صفوف المجتمع المكيّ. وفي كلّ مكان تراهم يأمرون فيطاعون، وحتى مساعديهم (كذا!) يتمتعون بهذه الشهرة في أشهر الحجّ. حيث ترى شموخ هؤلاء ومظهرهم المتعالي على مختلف فئات الحجاج الذين يمشون خلفهم ويستمعون إلى أوامرهم ويتقيدون بهم في كل حركة يقومون بها.

إنَّ مظهر الخيلاء هذا يستهوي الكثير من اليافعين لأنَّه يرضي غرورهم من ناحية، كما أن جيوب المطوفين ومساعديهم المليئة بالنقود تثير شهيَّة هؤلاء من ناحية أخرى. إنَّ المرء يسمع دائماً بعض هؤلاء الشباب يقول: لو أنني أستطيع جمع نصف قرش من كلّ حاجّ في سهل عرفات لما وجد فقير ولأصبح الكلّ أغنياء. ولهذا يفكر هؤلاء الشباب كثيراً في امتهان حرفة الطوافة التي يستطيع المرء من خلالها أن يكسب من المال خلال أسابيع ما لا يستطيع جمعه خلال السنة كلّها"[٣٣]!

ويعدّ كتاب محمد عبد الحميد مرداد "رحلة العمر" صورة مقرَّبة للسمات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة للحجّ والحجاج والمطوفين في مكة المكرَّمة، منذ نحو ثمانين سنة، وبخاصة ما له علاقة بحجاج جزر الهند الشرقيَّة (حجاج جاوا)، والعلاقات الإنسانيَّة والاقتصاديَّة الفريدة من نوعها بين الحاج والمطوِّف، آنذاك. فقد كان حجاج جاوا - كما يذكر مرداد - أغنى الحجاج وأسخاهم، إذا كانوا "عصب الحياة بل الموسم كلّه في الحجاز، وكانوا يمكثون زهاء خمسة أو ستة أشهر، وكانوا أصحاب ثروة، ونقودهم أغلى النقود على الإطلاق"[٣٤]. وكانت علاقة المطوِّف بالحاجّ - فيما يذكر مرداد - تتجاوز الشأن الاقتصاديّ أو التجاريّ، لتصبح علاقة أسريَّة وثقافيَّة، تشمل أفراد أسرة المطوِّف كافة، بمن فيهم الأطفال الذين يصوِّرهم مرداد، حينما كان في سنِّهم، بقوله: "وصرتُ صديقًا للمئات ممن سكن عندنا أو تعلَّم أو دُعيَ إلى وليمة بدارنا، ثم الطلوع والنُّزول

---

٣٣ نفسه، ص ٢٣٠، ٢٣١.

٣٤ نفسه، ص ٣٩٥.

يوميًّا وردّ السلام والأخذ والردّ مع هؤلاء السكان والاختلاط والاحتكاك والتزاور ... وأحياناً يزورنا البعض من هؤلاء السكان، والبعض يطلبون تصحيح القرآن على يد المرحوم العمّ جمال.. حتى أن البعض ممن يسكنون بدارنا يطلبون من العمّ أن أكون معلماً لزوجاتهم وبناتهم لتصحيح القراءة والتجويد..".[٣٥]

وهذا ما يعني أنّ علاقة مكة المكرَّمة وأبنائها بحجاج بيت الله الحرام، ليست علاقة "مطـوفين وحجَّاج"، في مفهومهما التبادليّ السطحيّ؛ فالحاجّ - قديمًا - لم يكنْ ليمرَّ بمكة المكرَّمة مروراً سريعاً، بل كان يعنيه المكان ومن حلَّ فيه، فإذا كان عالماً اجتمع بالعلمـاء وطلبة العلم؛ وإذا كان تاجرًا أسهم في حركة البيع والشراء، وإذا كان من أهـل اليسار تصدّق على المكيّين، وإن كان من عامَّة النَّاس عرَّف المكيّين على طعامه وشـرابه وملبسـه. فللحـاجّ أثرٌ في مكة المكرَّمة لا ينمحي، تنبئ به تلك المدارس والأربطـة والـتكايا والأوقاف التي كانت هدايا الحجاج لتلك الديار، وكان موسم الحـجّ فرصة كبرى لكي يتلمَّس سراة الحجاج احتياج بعض الأوقاف والمدارس، إذ لولا مساعدتهم السريعة لتوقفت عددٌ من تلك المدارس عن أداء رسالتها الجليلة.[٣٦]

ولأهـل مكـة المكرَّمة مكانة خاصَّة في قلوب مسلمي جنوب شرق آسيا، وبخاصة إندونيسيا وماليزيا، تنبئ بتلك المنـزلة التي يحتلُّها سراة المكيّين وعلماؤهم لدى سلاطين تلـك الـدول وأمرائها[٣٧]، وقادت الحركة المستمرَّة لحجاج جزر الهند الشرقيَّة إلى أن يتعرَّف المكيُّون، بصورة قويَّة، على طبائع تلك الشعوب، وعاداتها وتقاليدها[٣٨]، خاصة أنّ حجاج تلك المناطق - وبخاصة إندونيسيا - يتميّزون من غيرهم بالثراء والإقامة الطويلة

---

٣٥ نفسه، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

٣٦ يقول محمد عبد الحميد مرداد: " وكان للموسم أثرٌ فعَّال بالنسبة لمدرسة الفلاح؛ إذ إنّ الرواتب على ضآلتها وقلّتها لا تعتمد إلا على موسم الحجّ، وكان المدير يطبع رسالة ويبعث بها إلى المطوفين ومشايخ الجاويين.. يدعوهم إلى إحضار الأغنياء من الحجاج في أيام الموسم فيجمعونهم في (المنتزه) ثم يحضر الأساتذة والمدير، فيشرحون للحجاج موضوع المدرسة وحاجتها إلى المساعدة فيتبرعون بما تجود به نفوسهم..". ص ٥٥٣.

٣٧ **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ**، ص ٣٧٠.

٣٨ نفسه، ص ٣٧٢ .

في مكة المكرَّمة والسخاء، وأنَّهم قدموا للحجّ وطلب العلم، وليس للتجارة[٣٩]. ووصل حُبّ حجاج جاوا لمكة المكرَّمة وأهلها أنَّه بمجرَّد وصولهم إليها يقوم الحاجّ منهم بشراء حلَّة مكيَّة، لكي يرتديها بعد عودته إلى بلاده، رمزًا لأدائه فريضة الحجّ.[٤٠]

ويغدو ارتداء الزيّ العربيّ في تلك الجزر من الرموز الدينيَّة التي يحبّ أن يظهر بها الحاج الإندونيسيّ أمام مواطنيه[٤١]، ليغدو ارتداء الزيّ العربيّ ذا دلالة سياسيَّة لا يشعر بها إلاَّ المستعمر الأجنبيّ، الذي بات يعرف ارتباط الحجّ إلى بيت الله الحرام بالنهوض الوطنيّ والسياسيّ، إذ يشكِّل لهم ذلك الركن الإسلاميّ المهيب حلمًا لـ"القوَّة الدينيَّة والسياسيَّة للإسلام التي كان يسمع بها هؤلاء من خلال التراث الشعبيّ عن أيام الإسلام الأولى.."[٤٢]، ليسهم من استقرَّ في مكة المكرَّمة وجعلها وطنًا له في النسيج الاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والثقافيّ، في أعمال الطوافة والتجارة، والتدريس في الحرم المكيّ الشريف، وإصدار المؤلَّفات الدينيَّة وسواها، ويصبح التأليف باللغة الملايويَّة مصاقبًا للتأليف باللغة العربيَّة في مطابع مكة المكرَّمة.[٤٣]

ويقسم الحجّ حياة المكّيين إلى "الموسم" - أي موسم الحجّ - و"البصارة"، وهي الفترة الممتدَّة من انتهاء الموسم إلى ما يقرب من حلوله في العام القابل، وتتأرجح حياهم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ما بين هذين الزمنين، اللذين يتركان أثرًا بالغًا في صفاهم وعلاقتهم بالحجَّاج أو بمواطنيهم من أبناء مكة ذاهما. فموسم الحجّ هو عصب الاقتصاد المكيّ، وقوام حياة المكّيين ومعيشتهم، وهو، على قصره، مطمح حلم المكّيين في سعة رزقهم، وخروجهم من الفاقة، والذخيرة التي يصمدون بها أمام عوادي الزمن وصروفه، ويغدو ترقّب المستقبل هاجسًا مُلحًّا لدى كلّ مكيّ، يحلم بأن يكون "الموسم" عظيمًا، وأن يعمّ العالَم السلامُ، وأَنْ يظلّ اقتصاد الدول التي يفد منها الحجَّاج قويّاً معافًى. كلّ ذلك يُخرج المكّيين عن زمنهم الطبيعيّ - خارج الموسم -

---

٣٩ نفسه، ص ٣٧٢.

٤٠ نفسه، ص ٣٧٩.

٤١ نفسه، ص ٤٠٧.

٤٢ نفسه، ص ٤٠٩.

٤٣ نفسه، ص ٤٨١.

ويحوِّل حياتهم، من الدعة، إلى أنْ ينصرفوا إلى قوام حياتهم ومعيشتهم، بحثًا عن خدمة الحـــاجّ، والفوز بأكبر عددٍ منهم، ولعلّ ذلك ما يجعل "الحاج الورع الذي يتخيَّل أنّ كـــلّ شيء في حالة مثاليَّة في هذا البلد المقدَّس يفاجأ حينما يرى السعي المتواصل إلى مزيد من الربح في هذا الموسم.

وهذا في واقع الحال أمرٌ طبيعيّ؛ لأنّ مكة ليس لديها مصدرٌ حيويّ للدخل سوى هذا المورد، ولذا نجد أنّ التنافس حول طلب الرزق يزداد كثيرًا بدلاً من أن يقلّ. ويجب أنْ نـــؤكد هـــنا أنّ الذي يرى أهل مكة خارج موسم الحجّ يجدهم عذبي المعشر، مولعين بالمـــرح، كـــرماء إلى درجة التبذير، يكرِّسون جهودهم لحياتهم الاجتماعيَّة. وإنّ الذي يـــراقب حياتهم عن كثب يجدهم بجانب الخشونة والفظاظة التي عند بعضهم أناسًا نبلاء المعشر كريمي الصفات أتقياء ذوي ورع وصلاح".[٤٤]

وما إن ينتهي "الموسم"، حتى تبدأ أشهر "البصارة"، في عرف المكيِّين، وتُستأنَف مواســـم أخرى، ملؤها السمر والفرح والتمتُّع بالحياة، حيث تتحوَّل مكة المكرَّمة إلى مواســـم متتالية، يختلط فيها الدينيّ بالدنيويّ في نسيج عجيب، قوامه القانون المكـــيّ، غـــير المســـطَّر، الذي أشار إليه هرخرونيه - أواخر القرن الثالث عشر الهجـــريّ/التاسع عشر الميلاديّ - وهو "أنّ أهل المدينة يعيشون فقط للدين، ومن أجـــل الدين. (و) أهل جدة .. يعيشون من أجل الدنيا. أمَّا أهل مكة فيعيشون من أجل الدين والدنيا معاً".[٤٥]

وبمجـــرد أن يبدأ حجَّاج بيت الله الحرام بمغادرة الديار المقدَّسة، يستعيد المكيُّون مناســـباتهم الاجتماعـــيَّة الـــتي لا تكاد تنتهي، ولكلّ موسم أكلاته وحلويَّاته المكيَّة الشهيرة: فالحليب في بداية العام الهجريّ الجديد، رمزٌ لسنة بيضاء[٤٦]؛ وفي العاشر منه أُكلـــة "العاشـــوريَّة" الشهيرة؛ وحتى حينما يتشاءم المكيُّون في آخر أربعاء من شهر

---

٤٤ نفسه، ص ٦٤.

٤٥ نفسه، ١٤٢، ١٤٣.

٤٦ **مكة في القرن الرابع عشر الهجري**، ص ١٢٩.

صـــفر، يخـــرجون في ذلـــك اليوم إلى البساتين، ويصنعون فيه "العيش باللحم"![٤٧]؛ و"الشـــعبنة" في شـــهر شعبان[٤٨]؛ وتبدأ في أشهر ربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى مناســبات الــزواج[٤٩]، فضـــلاً عن المواسم الدينيَّة التي تستمرّ طوال العامّ؛ كـــ"مولد" النبيّ الأعظم ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول[٥٠]؛ والعمرة الرجبيَّة، في ذكرى الإسراء والمعراج؛ وزيارة المدينة المنوَّرة في شهر رجب[٥١]، في ركب مكيّ مهيب استمرَّ إلى ما قبل عدَّة عقودٍ من الزمان.

ويبدو أنَّ ولع المكِّيين بالمناسباتِ الاجتماعيَّة يعود إلى قرون ماضية، فقد حفظت لنا كتب التاريخ والرحلات طرفًا من أفراحهم وألوان سمرهم، على ذلك النَّحو الذي ألمح إليه ابن جبير في القرن السادس الهجريّ، ومن ذلك تفنُّن المكِّيين في صنع الأطعمة والحلويَّات التي سلبت لُبَّه وفضَّلها على ما يوجد في بلدان أخرى[٥٢]، وهو ما تشتهر بـــه مكَّة المكرَّمة في وقتنا هذا، دون مدن المملكة الأخرى! فضلاً عن تفنّنها في ألوان الأطعمـــة الشهيرة، التي يعود عددٌ منها إلى أكثر من خمسة قرون، كما تسجِّل ذلك تـــواريخ مكَّـــة المكـــرَّمة، وبعـــض هذه المأكولات معروف متداول في عصرنا هذا كـــ"المندي والفتوت والهريسة". ولعلّ من أطرف ما يتَّصل بهذا الموضوع أنَّه، لشدَّة حـــبّ المكّيين لعقد الولائم، تمّ تخصيص وقف لتيسير أمر هذه الولائم، "تستعار منه أدوات الســـفر والمفروشات للولائم والوضائم"[٥٣]، وذكر محمد طاهر الكردي المكيّ "أنَّ بعـــض البخاريّين من سكان مكة المشرَّفة قد أوقف لله تعالى ما يملكه بمكة وهو

---

٤٧ نفسه، ص ١٣٠.

٤٨ نفسه، ص ١٣٨.

٤٩ **صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ**، ص ١٢٧.

٥٠ نفسه، ص ١٢٤.

٥١ نفسه، ص ١٤٥.

٥٢ **رحلة ابن جبير** (القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٠م) ص ١١١.

٥٣ من تعليقات الأمير شكيب أرسلان على **حاضر العالم الإسلاميّ**، نقلاً من محمد طاهر الكردي، المرجع السابق، ٦/١٨٠، ١٨١ .

بستان البخاري المشهور بمحلة المسفلة لعمل الولائم لكلّ من أراد ذلك، ولقد جعل فيه من أدوات الطبخ ولوازمه من القدور والتباسي والصواني والصحون والملاعق وغيرها شيئاً كثيراً، وذلك بعد سنة ١٢٠٠ هجريَّة..".[٥٤]

وتبعاً لانفتاح مكة المكرَّمة على العالم بأسره، بسبب الحجّ، استطاع المكيُّون، منذ القدم، التغلُّب على طبيعة بلادهم القاسية، فغدا الوادي غير ذي الزرع مدينة كونيَّة، يُجْلَب إليها خراج كلّ شيْء! فهي الملتقى السنويّ للمسلمين، وهي - كذلك - مصفاة لغات الشعوب الإسلاميَّة ولهجاتها، وطعامها وشرابها وأزيائها. فأزياؤها - فيما وصف البتنوني - "مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الإسلاميَّة: عمامة هنديَّة، وقفطان مصريّ، وجُبَّة شاميَّة، ومنطقة تركيَّة.."![٥٥] وطعامها يمثِّل نموذجًا للمطبخ الإسلاميّ، الذي قد يجتمع في وجبة واحدة: فالفول مصريّ، والسمن حضرميّ، والتميز بخاريّ، ولكنَّه، في الأخير، ليس إلا وجبة مكيَّة - وإن شئت حجازيَّة - تتميَّز بنكهتها الخاصَّة، وخلطتها السرِّيَّة التي لا تنتمي إلى جذورها إلا على سبيل المجاز، أو ما يشبه المجاز! وهو ما لعلَّه أن يكون سرًّا من أسرار مكة المكرَّمة التي حباها الله -جلَّت قدرته - بهذه السمات الكونيَّة، في كلّ شيْء، ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ {إبراهيم:٣٧}، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيءٍ﴾ {القصص:٥٧} و"برهان ذلك - يقول ابن جبير - فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أنَّ أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كلّ مكان، فهي أكثر البلاد نعمًا وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد - فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت

---

٥٤ نفسه، ١٨٥/٦.

٥٥ **الرحلة الحجازيَّة**، ص ٤٢.

وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والعنبر والعود والعقاقير الهنديَّة، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقيَّة واليمانيَّة، إلى غير ذلك من السلع الخراسانيَّة والبضائع المغربيَّة إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط - ما لو فُرِّق على البلاد كلّها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعمَّ جميعها بالمنفعة التجاريَّة.

كلُّ ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها - مع طول الأيام - من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع، ولا ذخيرة من الذخائر، إلا وهي موجودة فيها مدَّة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، وآية من آياتها التي خصها الله بها"![٥٦]

واستطاعت مكة المكرَّمة، وقد أحاطت الصحراء بها من كلّ جانب، ألاَّ تجعل للصحراء من أثر بيِّن في تكوينها الاقتصاديّ والثقافيّ والاجتماعيّ واللغويّ، فظلَّت محافظة على مدنيتها وتحضُّرها طوال العصور، وكأنَّ جامع ملامحها، عبر التاريخ، ظَرْف أهلها - الذي هو أصل لظَرف الحجاز- وولعهم بالتأنُّق في الملبس والمأكل والمشرب[٥٧]، وهي من السمات المتأصِّلة في المجتمع المكّيّ، والتي استرعت نظر الرحَّالة الشهير ابن بطوطة، حين أشار إلى تأنُّقهم في الملابس، وكثرة استخدامهم للطيب، سواء لدى رجالهم، أو نسائهم اللاتي كُنَّ رموزًا للأناقة، منذ قرون طويلة، فنساء مكة - يقول ابن بطوطة - "فائقات الحسن، بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، وهُنَّ يكثرن التطيُّب حتَّى إنَّ إحداهنَّ لتبيت طاويةً وتشتري بقوتها طيباً! وهُنَّ يقصدن الطواف بالبيت في كلّ ليلة جمعة فيأتين في أحسن زيّ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً.."[٥٨]، فضلاً عن ذوقهم الرفيع في بيوتهم ومجالسهم، وتعدُّد مشاربهم ومآكلهم. ويجمع شملَهم رباط

---

٥٦ رحلة ابن جبير، ص ١١٠.

٥٧ الرحلة الحجازية، ص ٤٩.

٥٨ رحلة ابن بطوطة، ١/ ٣٨٧.

وثيق من التكافل الاجتماعيّ، ومساعدة الغريب وهي فضيلة تأصّلت في المجتمع المكيّ - منذ الجاهليّة، وإلى وقتنا الحاضر - وغدت مأثرة من مآثره، التي لهج بها الرحّالة، وبخاصة ابن بطوطة الذي غمره المكيُّون بسماحتهم وفضلهم، فسجّل لهم هذه المأثرة، شهادة من ذلك الرحّالة الكونيّ الكبير أمام التاريخ:

"ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامّة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنّهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء والمنقطعين والمجاورين، ويستدعيهم بتلطُّف ورفق وحسن خُلُق ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ النّاس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكلّ واحد منهم ما قسم له، ولا يردُّهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فإنّه يعطي ثلثها أو نصفها طيِّب النَّفس بذلك من غير ضجر.

ومن أفعالهم الحسنة أنّ الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كلّ واحد منهم قفتان كبرى وصغرى... فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبيّ فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليُهيَّأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يُذكَر أنّ أحدًا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قطّ بل يؤدي ما حمل على أتمّ الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس"![٥٩]

٥٩ نفسه، ١/٣٨٧.